دور جمعية العلماء المسلمين في المحافظة على اللغة العربية في الجزائر

د.نصيرة شافع بلعيد

تمهيد:

لقد أولت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين أهمية كبيرة لمسألة اللغة، فعملت على نشرها وترقيتها واستخدامها في كلّ شؤونها ، وقد تجلّى هذا في وسائل إعلامها التي كانت كلّها ناطقة بلغة الضاد، فمقالات ابن باديس والابراهيمي والعقبي والميلي وتوفيق المدني وغيرهم من علماء الجمعية ، كانت تحمل ثراء لغويا قرأه واستفاد منه ذلك الجيل الذي عايش مسيرة الجمعية والجيل الذي بعده، فقد كان هذا من الأهداف المسطرة منذ البداية، فإحياء اللسان العربي كان إلى جانب الدين الإسلامي، والوطن الجزائري مكوّنا لذلك الشعار الخالد :" الإسلام ديننا والعربية لغتنا والجزائر وطننا "، ضد الفرنسة والتنصير والاندماج والتجنيس التي كانت فرنسا ورجال التبشير المسيحي يحاولون فرضها على الجزائريين طوال عهد الاحتلال الفرنسي للجزائر (١٨٣٠ – ١٩٦٢م). لذلك عمل علماء جمعية العلماء المسلمين على بعث اللغة العربية في الجزائر، فخصصوا لها حيزًا كبيرًا في كتاباتهم الغزيرة المادة، البليغة الحجة والأسلوب، كما خصصوا لها حيزًا كبيرًا من وقتهم لتعليمها لأبناء الجزائر.

واقع اللغة العربية في الجزائر أثناء الاحتلال الفرنسي :

لم تكن الحملة الفرنسية على الجزائر سنة ١٨٣٠م مجرد هجوم عسكري غرضه تأديب الداي حسين حاكم الجزائر الذي ادعت فرنسا أنه أهان قنصلها في الحادثة الشهيرة المعروفة بحادثة المروحة، بقدر ما كانت حملة عسكرية الوسائل، صليبية الروح، حضارية الأهداف.

إن دخول الاستعمار الفرنسي إلى الجزائر، لم يكن كدخوله إلى غيرها من البلاد العربية التي احتلها أو فرض عليها الحماية، فلقد كان دخوله إلى الجزائر دخول الفاتح الذي لم يكن يفكر في الخروج، وكان استيلاؤه على خيراتها استيلاء المالك الذي لم يفكر إطلاقا في التنازل عنها أو السماح لغيره بالانتفاع بها والاستفادة منها. لقد كان الاستعمار الفرنسي للجزائر استعمارا استيطانيا، الهدف منه الاستحواذ على هذه البلاد وإلحاقها بفرنسا واعتبارها ولاية فرنسية وإلى الأبد.

وإذا كان الاستعمار الفرنسي قد احتل الجزائر واستولى على أراضيها بقوة الحديد والنار، فلقد كان منظروه يدركون أن البقاء فيها ودوام السيطرة عليها لا ينفع في تحقيقه الحديد والنار وحدهما، فهما وسيلتان غير مجديتين على الأمد البعيد، لأن روح المقاومة عند الشعب الجزائري ستتأجج مع الأيام، ولن يعدم أن يجد الوسائل المادية التي يستطيع بها أن يكسر شوكة السلاح الاستعماري ومعداته.

لقد عمل الاستعمار منذ أول يوم دخل فيه الجزائر على استخدام السلاح الأكثر مضاء والأشد فتكا لتحقيق البقاء له في هذه البلاد وضمان استمرار سيطرته عليها، ألا وهو سلاح الثقافة والفكر..

دليل ذلك؛ أن الحملة الفرنسية على الجزائر لم تكن مجرد حملة عسكريين محترفين يؤدون مهمة عسكرية صرفة وينتهي دورهم عند ذلك، بل كانت حملة شارك فيها العسكريون جنبا إلى جنب مع رجال الدين ورجال العلم والفكر.١

لم يتردد منظرو الاستعمار الفرنسي في حشد وتسخير الوسائل التي كان من شأنها أن تحقق الغاية المرسومة وهي طمس الهوية الجزائرية وإلغاء الشخصية الجزائرية المتميزة، يقول الشيخ محمد البشير الإبراهيمي رحمه الله: "الاستعمار الفرنسي صليبي النزعة، فهو –منذ احتل الجزائر– عاملٌ على مَحْوِ الإسلام لأنه الدين السماوي الذي فيه من القوة ما يستطيع به أن يسودَ العالم، وعلى مَحْوِ

اللغة العربية لأنها لسانُ الإسلام، وعلى محو العروبة لأنها دعامة الإسلام، وقد استعمل جميع الوسائل المؤدية إلى ذلك، ظاهرة وخفية، سريعة ومتأنية".

ويقول رحمه الله في موضع آخر: "جاء الاستعمار الفرنسي إلى الجزائر كما تجيئ الأمراض الوافدة تحمل الموت وأسباب الموت، والاستعمار سُلٌّ يحارب أسباب المناعة في الجسم الصحيح، وهو في الجزائر قد أدار قوانينه على نسخ الأحكام الإسلامية، وعبث بحرمة المعابد، وحارب الإيمان بالإلحاد، والفضائل بحماية الرذائل، والتعليم بإفشاء الأمية، والبيان العربي بهذه البلبلة التي لا يستقيم معها تعبير ولا تفكير".٢

لقد عمل الاستعمار الفرنسي، إذًا، على ترسيخ مشروعه الثقافي وتحقيقه في واقع المجتمع الجزائري، من خلال محاربة الإسلام ،إذ كانت محاربة العقيدة الإسلامية، وإنهاء تأثيرها على حياة الفرد والمجتمع الجزائري، هدفا أساسا عمل الاستعمار الفرنسي على تحقيقه، لأنه كان يدرك أن بقاءه في الجزائر واستمرار سيطرته عليها مرهون بمدى تمكنه من فك الارتباط بين الفرد الجزائري وعقيدته الإسلامية، فهو كان يعرف أن هذه العقيدة هي التي ظلت تستحث الشعب الجزائري على الثورة ضد المحتلين والعمل على تحرير البلاد من سيطرتهم، منذ الفتح الإسلامي إلى أوائل القرن التاسع عشر الميلادي.. لذلك لم يتردد الاستعمار الفرنسي منذ البدايات الأولى لاحتلاله الجزائر، في توجيه سهام الهدم إلى العقيدة الإسلامية في نفوس الجزائريين بغرض إسقاط هيبتها والحدِّ من تأثيرها. كما عمل الاستعمار الفرنسي على ترسيخ مشروعه الثقافي من خلال محاربة اللغة العربية ، حيث لم يكن الاستعمار الفرنسي غافلا عن دور اللغة العربية في حياة الجزائريين، باعتبارها الوسيلة إلى فقه الدين ومعرفة أحكامه والاطلاع على تعاليمه، ولكي يتم له فصل المسلمين الجزائريين عن دينهم، كان لا بد من فصلهم عن وسيلتهم لتعلم الدين وتطبيقه وهي اللغة العربية.. لذلك لم يتوان الاستعمار منذ البداية في إعلان الحرب على اللغة العربية، من خلال العمل على غلق الكتاتيب القرآنية ومكافحة التعليم العربي والتضييق على كل ما من شأنه أن يبقي على اللغة العربية ويحافظ على وجودها، وفي المقابل ألزم الاستعمار المدارس بتعليم اللغة الفرنسية والعمل على ترسيخها على ألسنة الجزائريين.

في ٥ محرم ١٣٥٧ هـ / ٠٨ مارس ١٩٣٨م: أصدر رئيس وزراء فرنسا آنذاك كاميي شوطون Camille Chautemps قرارا نص على حظر استعمال اللغة العربية واعتبارها لغة أجنبية في الجزائر. ويأتي هذا القانون في سلسلة قوانين سنّها الاحتلال الفرنسي لمحاربة اللغة العربية، وجعل اللغة الوحيدة للبلاد هي اللغة الفرنسية. وكان لهذه القوانين الاثر الشديد في المجتمع الجزائري. وتحويل لغة الادارة والحكم إلى اللغة الفرنسية. كما أصدر الحاكم العام الفرنسي للجزائر في ٢٤ ديسمبر ١٩٠٤م قرارا ينص على عدم السماح لأي معلم جزائري أن يفتح مدرسة لتعليم العربية دون الحصول على رخصة من السلطة العسكرية .لقد كان الاستعمار والمبشرون يعتقدون جازمين بأن نجاحهم في القضاء على اللغة العربية، سوف يسهل لهم بدون شك القضاء على الإسلام، وبالتالي إيجاد أندلس جديدة في الجزائر، ثم إلحاقها إلحاقا نهائيا بفرنسا، فيما وراء البحر الأبيض المتوسط. إذن، فاللغة العربية هي المقوم الرئيسي للشخصية الوطنية العربية في الجزائر، ولذلك كان الصراع محتدمًا على أشده، وعنفوانه بين رجال التعليم العربي الحر من جهة، وبين الإدارة الاستعمارية ورجال التبشير المسيحي من جهة أخرى، طيلة قرن واثنتين وثلاثين سنة (١٨٣٠م – ١٩٦٢م).

وهذا ما يفسر السبب الذي من أجله اتجه قادة الحركة الإصلاحية السلفية في الجزائر إلى التعليم العربي الإسلامي دون الاتجاه مباشرة إلى تكوين الأحزاب السياسية على غرار ما كان يفعله معظم قادة الجزائر منذ مطلع القرن الحالي الميلادي.لقد رأى هؤلاء الرجال بثاقب بصيرتهم أن إنقاذ الجزائر من خطر الفرنسية، والتنصير، إنما يكون عن طريق واحد فقط، هو العمل على إحياء اللغة العربية، حتى تعود لها مكانتها في الجزائر كلغة ثقافة وعلم، وأدب، وإحياء الإسلام، عن طريق تطهيره من الخرافات، والأساطير.

نشأة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين:

في يوم الثلاثاء ١٧ ذي الحجة ١٣٤٩ه، الموافق ل٥ ماي ١٩٣١م، تمّ بنادي الترقّي بالجزائر العاصمة ، تأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، من قبل عدد من العلماء والمصلحين الجزائريين، الذين هالهم ما آل إليه حال الجزائر وشعبها في ظل الاحتلال الفرنسي، فتنادوا لعمل شيء

يغير هذا الحال ويعيد الأمور إلى نصابها الصحيح، فكان تأسيس الجمعية مفتاح هذا العمل وبداية الطريق إلى بث الوعي واليقظة في نفوس الجزائريين لينتبهوا من رقدتهم ويعودوا إلى رشدهم ويطردوا المحتل من بلادهم. ولأن الظروف لم تكن مواتية لإعلان المقاومة العسكرية ضد الاستعمار، فقد كان التركيز على العمل الثقافي والتربوي باعتباره أنجع وسيلة للمقاومة والمحافظة على الهوية والانتماء الحضاري للأمة الجزائرية. وكان إنشاؤها عشية احتفال المستعمرين بالذكرى المئوية لاحتلال الجزائر، ذلك الاحتفال الذي كان الفرنسيون يريدون منه أن يكون بمثابة الإعلان عن موت الكيان الجزائري وذوبانه المطلق في فرنسا.

لذلك كان إعلان إنشاء الجمعية ضربة قاصمة وجهها رواد الإصلاح لقادة الاستعمار وأذنابه في الجزائر، فكان أن أدرك الاستعمار أن جهوده لم تحقق ما كان يصبو إليه، بل إن تلك الجهود تكاد تذهب أدراج الرياح إذا ما أتيح لهذه الجمعية أن تستمر ولعملها أن يثمر وينتشر.

وقد عيّن عبد الحميد بن باديس رئيسا للجمعية و تفرق قادتها وأعضاؤها عبر التراب الوطني، وفي المدن الكبرى منه خاصة، حيث تولى كل واحد منهم رعاية أعمال الجمعية وتجسيد مشاريعها الفكرية والتربوية في الميدان، فتولى الإمام ابن باديس مهام إدارة الجمعية في الشرق الجزائري من قسنطينة، والإمام الإبراهيمي في الغرب الوهراني من تلمسان، والعقبي في الجزائر، والعربي التبسي في تبسة، والميلي في الأغواط، بينما تولى كبار تلاميذ ابن باديس مهام الجمعية في مختلف المدن الجزائرية.

والجدير بالذكر أنّ جمعية العلماء ألزمت رجالها التحدّث باللغة العربية بعدما منعت فرنسا استعمالها سنة ١٩٣٨م وحثّتهم على ترك الحديث باللغة الفرنسية إلاّ عند الضرورة ، وعند العجز عن ذلك يمكن استعمال اللهجة الدارجة عوض الفرنسية ، وكلّ من يتحدّث بكلمة فرنسية يدفع غرامة مالية قدرها (دورو) أو مبلغ يتّفق عليه.٣

حرص أعلام جمعية العلماء المسلمين الجزائريين على إقامة الدروس الدينية في المساجد الحرة، وكذا إلقاء المحاضرات المتنوعة الاجتماعية والتاريخية ذات التوجه الوطني، في النوادي التي أسستها الجمعية عبر مختلف مناطق التراب الوطني.. وقد كان القصد من وراء هذه الدروس والمحاضرات؛ التعريف بالإسلام الصحيح ومكافحة الإلحاد والتنصير الذي كانت الجهات الاستعمارية دائبة في نشره وترسيخه في واقع المجتمع الجزائري، وكذا تعريف الإنسان الجزائري بحقيقة هويته الحضارية ورصيده التاريخي والثقافي.

وقد اتبع العلماء في المساجد طريقة السلف في الوعظ والإرشاد، يُذَكِّرُون بكتاب الله، ويقومون بشرحه وإجْلاء العِبَر منه، وبالصحيح من السنة يُوَضِّحُونه وينشرونه، وسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم العملية والقولية، ثم سيرة الصحابة وهدْيهم، ثم سِيَرَ حَمَلَةِ السنة النبوية في أقوالهم وأفعالهم. وقد كان أسلوب العلماء في التعليم الديني هو الاهتمام بالمعنى والنفوذ إلى صميمه من أقرب سبيل يؤدي إليه، وبيان الطرق العلمية التطبيقية، وتجنب اللفظيات والخلافات وكل ما يبعد عن تصور المعنى المقصود.

وقد زاد عدد النوادي التي أسستها الجمعية؛ على السبعين ناديا حملت رسالتها وضمت أتباعها، ومن النوادي التي استغلتها الجمعية أحسن استغلال وبثت من خلالها أفكارها ودعوتها؛ (نادي الترقي) بالجزائر العاصمة، الذي شهد إلقاء عشرات المحاضرات الهادفة لعلماء الجمعية، وخاصة منهم الإمام ابن باديس، والشيخ البشير الإبراهيمي، والشيخ الطيب العقبي، والأستاذ أحمد توفيق المدني. وقد كان لتلك الدروس والمحاضرات أثرها العجيب في النفوس، حيث تغلغل الوعي إلى أعماق القلوب ومَسّ المشاعر، فأحيا في نفوس الجزائريين الشعور الوطني الدافق، والرغبة الجامحة في الحرية والانعتاق.

وعموما يلخص الدكتور الباحث عبد الكريم بو الصفصاف نتائج الجهاد التربوي والثقافي لرجال الجمعية، في أربعة نقاط ، هي:

١- تجديد الإسلام وإحياء الثقافة العربية في الجزائر
٢- إعادة ربط الجزائر بالأمّة العربية حضاريا ولغويا
٣- إيقاظ وبعث الوعي الوطني بين الجزائريين
٤- المحافظة على الشخصية الجزائرية.

البعد اللغوي وآفاقه عند الجمعية :

اهتمت الجمعية منذ تأسيسها بإنشاء المدارس العربية في شتى أنحاء القطر، وكانت أول المدارس التي أسستها: مدرسة التربية والتعليم بقسنطينة، ومدرسة الشبيبة الإسلامية بالجزائر، ومدرسة

تهذيب البنين بمدينة تبسة. كما قامت الجمعية بفتح عشرات المدارس الابتدائية الحرة لأبناء الشعب الجزائري، والذين لم يترددوا في الالتحاق بها، وكانت هذه المدارس تعلم الناشئة مبادئ العربية وآدابها ومبادئ التاريخ الإسلامي والتربية الإسلامية الصالحة. وكان افتتاح هذه المدارس وانتشارها عبر التراب الوطني يتم بانتظام وتسارع، حتى إنه في عام ١٩٤٤ وحده، افتتحت الجمعية أزيد من سبعين مدرسة. وقد بلغ عدد مدارس جمعية العلماء سنة ١٩٥٥ أكثر من مائة وخمسين مدرسة ابتدائية حرة، يتردد عليها أكثر من خمسين ألف تلميذ من أبناء الأمة الجزائرية، بنين وبنات يدرسون مبادئ لغتهم وآدابها، وأصول دينهم وتاريخ قومهم على برنامج يجمع ضروريات العلم وإيجابيات التربية الإسلامية القومية الصحيحة، وقد تخرج منها عشرات الآلاف. هذا إضافة إلى معهد ابن باديس الثانوي الذي أسسته الجمعية سنة ١٩٤٧، وتخرج منه المئات من الطلبة، الذين صاروا بعد ذلك من أطر الدولة الجزائرية بعد الاستقلال.

وقد حرصت الجمعية، على أن تتسم البرامج التعليمية والكتب والطرق المعتمدة في مدارسها؛ بالتجديد ورفض الجمود والتقليد، فكانت تنتقي الكتب المقررة في المواد الدراسية انتقاء دقيقا، فتختار ما هو أقرب إلى الإفادة، وأعون على تحصيل الملكة العلمية، وتجتنب الكتب الجامدة المعقدة التي لا تفتق ذهنا ولا تبعث في نفس الدارس نشاطا، وتختار للمطالعة في مختلف العلوم الكتب الحية السهلة. وكانت العلوم التي تدرس للناشئة والطلبة في مدارس ومساجد الجمعية؛ تتمثل في العلوم الشرعية واللغوية، وهي: العقيدة، التفسير، الحديث، الفقه، الأدب، المواعظ، التجويد، أصول الفقه، المنطق، النحو، الصرف، البلاغة، المحفوظات، المطالعة، الإنشاء، الحساب، الجغرافيا، التاريخ".

وقد اتخذ نشاط الجمعية الاتجاهات التالية:

- إصلاح اللغة التي أصبحت نوعا من العامية المزوجة بكلمات بربرية وغربية، فكان عمل العلماء محاولة إعادة اللغة إلى نقائها الأصلي.
- إعادة اكتشاف الآداب والفنون والعلوم التي أصبحت مجهولة والسعي في نشرها.٤

بالإضافة إلى المدارس أسست جمعية العلماء عددا من الصحف والمجلات باللغة العربية والتي اتخذت منها منبرا لنشر أفكارها وبث الوعي في نفوس الجزائريين وتعريفهم بحقوقهم وتذكيرهم برصيدهم الحضاري والتاريخي الذي حاول الاستعمار طمسه وتجهيلهم فيه مثل الشهاب والمنتقد والشباب الجزائري ... وقد أسست الجمعية سنة ١٩٣٥ جريدة (البصائر)، التي أصبحت لسانها الرسمي، وحملت راية البيان العربي، وكافحت من أجل اللغة العربية وإرجاع الإسلام إلى عهده الزاهر، وتصارعت مع الإدارة الاستعمارية دفاعا عن مؤسسات الجمعية ومبادئها. قضت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين على عهد رئيسها الأول الشيخ عبد الحميد بن باديس رحمه الله تسع سنوات كاملة تؤدي عملها الثقافي الإصلاحي التغييري في واقع المجتمع الجزائري، ولقد كان من توفيق الله سبحانه وتعالى للجمعية، أن جهودها قد أثمرت في فترة وجيزة، وظهرت آثار جهادها الثقافي في الواقع، فقد أحدثت تغييرا جذريا وعميقا في بنية المجتمع الجزائري الثقافية، حيث أدت إلى انتشار التعليم العربي الحر وازدهار اللغة العربية، وانتعاش الحياة الثقافية، وتطور الفكر الجزائري الحديث، وظهور نهضة أدبية وعلمية واسعة، ووجهت –في المقابل– ضربات قوية إلى مشروع الفرنسة والإدماج الذي كانت فرنسا تعتمد عليه في تحطيم مقومات الشخصية الوطنية".

وقد أكرم الله عز وجل الرئيس الأول لهذه الجمعية الإمام عبد الحميد بن باديس، فأراه قبل وفاته نتائج عمله الجهادي هو وإخوانه العلماء، وقد أكد الإمام رحمه الله ذلك، حين قال مخاطبا أفراد الشعب الجزائري، مبينا نتائج جهود الجمعية وثمرة عملها:

"حوربت فيكم العروبة حتى ظُنّ أن قد مات منكم عِرْقُها، ومُسخ فيكم نُطقُها، فجئتم بعد قرن تصدح بلابلكم بأشعارها، فتثير الشعور والمشاعر، وتهدر خطباؤكم بشقاشقها فتدك الحصون والمعاقل، ويهز كتابكم أقلامها فتصيب الكلى والمفاصل.. وحورب فيكم الإسلام حتى ظن أن قد طمست أمامَكم معالمُه وانتُزِعَت منكم عقائدُه ومكارمُه، فجئتم بعد قرن ترفعون عَلَم التوحيد، وتنشرون من الإصلاح لواءَ التجديد، وتدّعون إلى الإسلام، كما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم، لا كما حرفه الجاهلون وشوهه الدجالون ورضيه أعداؤه. وحورب فيكم العلم حتى ظن أن قد رضيتم بالجهالة وأخلدْتُم للنذالة ونسيتم كل علم إلا ما يرشح به لكم أو ما يمزج بما هو أضر من

الجهل عليكم، فجئتم بعد قرن ترفعون للعلم بناء شامخا، وتشيدون له صرحا سامقا، فأسستم على قواعد الإسلام والعروبة والعلم والفضيلة جمعيتكم هذه، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين".

وبعد وفاة الإمام ابن باديس رحمه الله، تولى القيادة أخوه وشقيق روحه الإمام محمد البشير الإبراهيمي، فكان أن واصل الجهاد الإصلاحي هو ورفاقه العلماء أعضاء الجمعية. ورغم ما اعترض مسيرة الجمعية من مصاعب جمة، أبرزها اعتقال الإبراهيمي نفسه ونفيه إلى آفلو في الجنوب الجزائري مدة ثلاث سنوات كاملة، إلا أن الجمعية كانت قد أصبحت مؤسسة قائمة وكيانا ثابتا لا يتزعزع، فاستمرت في أداء عملها الإصلاحي ثابتة الخطى رابطة الجأش مدة ست عشرة سنة أخرى. وقد أثمر عمل الجمعية ما كان أعلامها يصّبُون إليه، وهو تهيؤ الشعب الجزائري لخوض غمار الثورة المسلحة ضد الاستعمار، بعد اكتمال وعي هذا الشعب ونضج إدراكه ويقينه أن فرنسا لم تأت إلى الجزائر لتنشر المساواة والعدالة والحرية التي كانت تتغنى بها ثورتها، وإنما جاءت لتزرع الجهل والفقر والذل وانهيار القيم والأخلاق والرضا بالذل والهوان في نفوس الجزائريين، وقد كاد يتحقق لها ذلك لولا أن قيض الله عز وجل جمعية العلماء لتأتي على جهودها من الأساس فكان أن ذهبت أدراج الرياح.

لقد أحيت جمعية العلماء اللسان العربي، والنخوة العربية، وأحيت دين الإسلام وتاريخه المشرق، وأعادت لهما سلطانهما على النفوس وتأثيرهما في العقول والأرواح، وشأنهما الأول في الاتعاظ والأسوة، فأحيت بذلك كله الشعب الجزائري فعرف نفسه، فاندفع إلى الثورة يحطم الأغلال ويطلب بدمه الحياة السعيدة والعيش الكريم، ويسعى إلى وصل تاريخه الحاضر بتاريخه الغابر.

وإنها لشهادة حق من باحث مخلص، تلك التي خطها قلم الدكتور تركي رابح عمامرة، وهو من أكثر الباحثين اشتغالا بتراث جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، حين كتب يقول:

"الواقع أن جمعية العلماء لعبت دورا بالغ الأهمية في التاريخ الجزائري الحديث، بل لا نغالي إذا ما قلنا إنها هي المنظمة الوطنية التي يعود إليها الفضل في بقاء الإسلام والعروبة في الجزائر حتى اليوم، وتجنيب الجزائر من مخاطر سياسة الإدماج والفرنسة، التي كان يدعو لها بعض الجزائريين في العشرينات والثلاثينات من القرن العشرين، ويعمل الاستعمار من ناحية على فرضها على الجزائريين بكل الوسائل الشيطانية منذ الأيام الأولى للاحتلال".

جمعية العلماء هي التي حقّقت للجزائريّ نسبه العربيّ الصريح ، وأحيت في نفسه شعور الاعتزاز بنفسه ، وفي لسانه شعور الكرامة للغته، وفي ضميره شعور الارتباط بين ثلاثة مقوّمات : الجنس واللغة والوطن، يمدّها الشرق بسناه، ويغذّيها الإسلام بروحانيته ، وجمعية العلماء هي التي أثبتت للاستعمار أنّ الدماء البربرية التي مازجت الدم العربيّ أصبحت عربية بحكم الإسلام.٥

ونلاحظ أنّ علماء الجمعية وعلى رأسهم البشير الإبراهيمي كانوا عندما يكتبون عن اللغة العربية ، يكتبون عنها بدم قلوبهم لا بالحبر العادي. ولذلك بذلوا في سبيل تعليمها ونشرها الشطر الأكبر من حياتهم، وكان قلمهم عندما يكون في موقف الدفاع عن العربية والإسلام، أقوى ما يكون، وأعنف وأشد ما يكون، حتى كأنه السيف المسلط على رقاب أعداء العروبة والإسلام، باتر وقاطع يصيب منهم المحز وينزل على رؤوسهم كالصاعقة.

لقد حقّقت الجمعية نجاحا كبيرا في نشر اللغة العربية والنهوض بها ، وقد اعترفت إحدى الوثائق الفرنسية بذلك وذكرت أنّ الدليل على هذا هو ارتقاء مستوى الكتابة في الصحف العربية بعد ظهور الجمعية عما كانت عليه قبل ذلك، وقد كان نشاط العلماء في مجال إحياء اللغة العربية في الجزائر محلّ اهتمام الدراسات والوثائق الفرنسية التي ذكرت أنّ جهد العلماء تركّز في إحياء اللغة العربية واكتشاف الفنون والعلوم العربية ونشرها ، فقد سعت إلى نشر اللغة العربية وتطويرها في الوقت نفسه كما حدث في مصر، وتضيف دراسة نشرت في إحدى المجلّات الفرنسية عام ١٩٥٥م أنّ الوسائل التي استخدمت في تحقيق ذلك هي تدريس الكبار في النوادي والمساجد ، أمّا بالنسبة للأطفال فقد أسّست المدارس الخاصّة في كلّ مكان.٦

وقد أشار أحد المؤرخين إلى أنّ حماية اللغة العربية تطرح عادة بمنزلة الموضوع الثقافي ولكنّها في نفس الوقت موضوع سياسي، فالمدارس التي افتتحتها الجمعية واجهت كلّ أنواع العراقيل والمضايقات الإدارية ، لذلك كان لابد من التصدّي للسلطة الاستعمارية حتى تتمكن هذه المدارس من البقاء، ويضيف أنّ الإدارة

الفرنسية كانت قلقة من التهديد الذي تمثّله هذه المدارس للثقافة والتعليم الفرنسي، وقد ساهمت الصحف الفرنسية في إثارة هذا القلق حين تحدّثت عن الصحوة الوطنية التي تقوم بها مدارس الجمعية لما يتعلّمه الأطفال فيها من أناشيد وطنية تهدف إلى إثارة الخوف من الأجنبي وكرهه.٧

إنّ ممارسة تعليم اللغة العربية والمطالبة باحترامها وإنشاء الصحف بها واعتبارها هي اللغة التي تعبر عن شخصية الجزائر ، كلها من المبادئ الأساسية التي قامت عليها جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وتضمنها دستورها وخطب رجالها، وكانت مدارسها ومعلميها. فلا غرابة إذا أن تقوم حركة ابن باديس أولا وجمعية العلماء ثانيا، على نشر وتقديس العربية حتى قال ابن باديس مقولته الشهيرة (أقضي بياضي على العربية والإسلام وأقضي سوادي عليهما). أما المطالب التي قدمتها جمعية العلماء للمؤتمر الإسلامي(١٩٣٦) والتي تبناها المؤتمرون جميعا (و فيهم النخبة والشيوعيون والنواب) قامت على ما يلي بخصوص اللغة العربية:

- إلغاء كل ما يتخذ ضد اللغة العربية من وسائل استثنائية، وإلغاء اعتبارها لغة أجنبية.
- الحرية التامة في تعلم اللغة العربية.

وقد ظل ذلك هو شعار الجمعية والمطلب الرئيسي لها، بل والممارسة الفعلية في الميدان، رغم العراقيل والاضطهاد، فكان معهد ابن باديس وكانت العشرات من المدارس، وكانت الصحف والنوادي والجمعيات التي تنشر العلم بالعربية في المدن والقرى إلى قيام الثورة التحريرية، والمعروف أنه قد أعيد تنظيم الجمعية سنة ١٩٤٦، مثل كل الأحزاب والمنظمات الوطنية. وقد لاحظ أحد الكتاب أن اللافتة المعلقة في أول اجتماع لجمعية العلماء بعد الحرب العالمية الثانية كانت تقرأ كالتالي: (نريد حرية التعليم والاعتراف باللغة العربية) ،وقد قدمت جمعية العلماء بعد الحرب تقريرا مفصلا إلى السلطات الاستعمارية الفرنسية طالبت فيه بفصل الدين الإسلامي عن الدولة الفرنسية وجعل اللغة العربية لغة رسمية. إنّ جمعية العلماء قد أحيت الجزائر وبعثت فيها عربيتها التي كادت تغيب وإسلامها الذي كاد يقضى عليه، ولو أنّ حركات التحرّر السياسي في الجزائر سارت بطريق آخر، وعلى منهج بعض الهيئات التي أنشئت في جوّ التأثّر بالثقافة الفرنسية، لكانت الجزائر اليوم قطرا فرنسيا، ولو أنه مستقلّ استقلالا ذاتيا، ولكنه استقلال يمحو شخصيتها ويزيل عنها إسلامها وعروبتها. بفضل مدارس جمعية العلماء وجدت الجزائر المستقلّة أربعين ألف متعلّم باللغة العربية بعد الاستقلال ، وهم من كوّنوا أساس تعريب التعليم الابتدائي ، كما وجدت في العهد الاستعماري ١٥٠ مدرسة موزّعة على مدن وقرى الوطن ولهذا السبب حقدوا عليها لأنها أبقت اللغة العربية حيّة وطلبة ابن باديس هم من أطّروا الثورة قبل أن يسيطر طلبة المدارس الفرنسية على الجهاز الإداري.٨

إمكانية تحيين تجربة الجمعية :

يقول الشيخ محمد البشير الإبراهيمي الرئيس الثاني لجمعية العلماء من مقال كتبه بالعدد ٤١ من جريدة " البصائر" في سنة ١٩٤٨م تحت عنوان "اللغة العربية في الجزائر عقيلة حرّة ليس لها ضرّة ": "اللغة العربية في الجزائر ليست غريبة ولا دخيلة، بل هي في دارها وبين حماتها، وأنصارها، وهي ممتدة الجذور مع الماضي، مشتدّة الأواخي مع الحاضر، طويلة الأفنان في المستقبل، ممتدة مع الماضي لأنها دخلت هذا الوطن مع الإسلام، على ألسنة الفاتحين، ترحل برحالهم، وتقييم بإقامتهم، فلما أقام الإسلام بهذا الشمال الإفريقي إقامة الأبد وضرب بجرانه فيه أقامت معه العربية، لا تريم ولا تبرح، ما دام الإسلام مقيما لا يتزحزح. ومن ذلك الحين بدأت تتغلغل في النفوس، وتتساغ في الألسنة واللهوات، وتناسب بين الشفاه والأفواه، يزيدها طيبًا، وعذوبة أن القرآن بها يتلى، وأن الصلوات بها تبدأ وتختم.٩

وقال في مقال آخر بعنوان "التعليم العربي": "اللغة العربية هي لغة الإسلام الرسمية، ومن ثم فهي لغة المسلمين الدينية الرسمية ولهذه الأمة الجزائرية، حقان أكيدان: كل منهما يقتضي وجوب تعلمها، فكيف إذا اجتمعا، حق من حيث أنها لغة دين الأمة بالحكم أن الأمة مسلمة، وحق إنها لغة جنسها بحكم أن الأمة عربية الجنس، ودين معًا. ومن هنا نشأ ما نراه من حرص متأصل في هذه الأمة على تعلم العربية".١٠

انطلاقا ممّا قاله البشير الإبراهيمي تبرز أهمية اللغة العربية في الجزائر وضرورة تعميم استعمالها، لذلك يجب تفعيل وتحيين تجربة جمعية العلماء في

خدمة العربية على الصعيد المجتمعي الحيوي.

فاللغة العربية تواجهها اليوم تحديات كبرى وهي تبحث عن كرسيها بين لغات العالم رغم أنها لم تتصادم في حياتها مع لغات العالم الأخرى، فجميع دول العالم تضع سياجا أمنيا للغتها الأم وتحصّنها وهذا الذي يجب فعله أيضا للغتنا العربية من خلال الاستخدام الأمثل و الصحيح للغة العربية في تعاملنا اليومي والمحافظة عليها من التشويه، فجمعية العلماء المسلمين الجزائريين كان لها الفضل الكبير في الذود عن أحد أبرز مقومات الهوية الوطنية وهي اللغة العربية التي أراد الاستعمار طمسها مستخدما سياسته التدميرية، فدور الجمعية كان رفع هذا التغريب الذي فرضته على لغتنا سلطة المستعمر، وأن الشيخ "عبد الحميد بن باديس " كان له الفضل في ابراز اللغة العربية خوفا عليها من هذا التغريب الذي فرض على شخصية الجزائريّ بكل الوسائل المتاحة آنذاك، وقد جاء دورنا اليوم لردّ الاعتبار لصاحبة الجلالة في بلد المليون والنصف مليون شهيد.

من أهمّ ما يجب القيام به لتحيين تجربة جمعية العلماء دفع الشباب الجزائري إلى الاهتمام باللغة العربية من خلال توعيتهم بمكانتها بين اللغات وأثرها في اللغات الأخرى. إذ لا يوجد لغة في العالم إلا وبها كلمات من اللغة العربية. ففي اللغة الإسبانية نحو خمسة آلاف كلمة من اللغة العربية، وفي اللغة الإنجليزية نحو ثلاثة آلاف كلمة أصلها عربي، وأكثر من ٢٥٪ من الكلمات في اللغتين الماليزية والاندونيسية من اللغة العربية. وفي اللغات التركية والفارسية والأوردية والهندية حتى اللغة الأوكرانية كلمات من اللغة العربية (عدا الكلمات الإسلامية). وفي اللغة العربية ظواهر لغوية لا توجد في أي من لغات العالم. وإذا كان هناك قصور في مواكبة اللغة العربية للتطورات التكنولوجية والعلمية فليس سببه قصور في بنية اللغة العربية، بل تقاعس أبنائها والدول العربية في خدمة وتطوير اللغة العربية.

اللغة هي وعاء الثقافة. وعندما يتعلم الطفل لغة ما، فإنه يتعلم لغة وثقافة معا، ويتعلم مفاهيم وطريقة تفكير وقدرة على التعبير، خاصة وأن اللغة العربية المحكية تختلف عن اللغة المكتوبة. وإذا تعلم الطفل جميع الدروس باللغة الفرنسية، تصبح اللغة الفرنسية هي لغة الاستخدام اليومي، وهي لغة الثقافة، وسيكون أكثر انتماء واعتزازا وتبجيلا للغة الفرنسية من اللغة العربية، وحتى يشعر الطفل بالانتماء للوطن وللأمة العربية وللغة العربية، ينبغي أن يتعلم الطلاب جميع الدروس باللغة العربية مهما كانت المبررات. أما اللغة الفرنسيية وغيرها فيمكن أن يتعلمها المرء حتى في سن الستين. وكثير من الطلاب الذين درسوا في تركيا وألمانيا وايطاليا استطاعوا أن يدرسوا الطب والهندسة بعد دراسة دورة مكثفة في تلك اللغات مدتها لا تزيد على ستة أشهر.

لذلك يجب أن تولى اللغة العربية مكانتها الوطنية الرسمية، اللائقة بها تاريخيا ودستوريا، بأن يستمرّ تعليم العلوم والرياضيات بها في جميع مراحل التعليم قطعا ودائما، وأن تتظافر الجهود لجعلها لغة التعليم في التعليم العالي، جدّيا وتدريجيا، لأنّ تعلّم علوم الحياة كلّها إن تمّ بالعربية تكون تلك العلوم قوّة فينا، وعزّة لنا ، وتوثيقا لوحدتنا، في حين أنّ تعلمها بلغة غيرنا يجعلنا قوّة لذلكم الغير، وهدما لكياننا الاجتماعي والوطني، كما عبّر عن ذلك الإمام البشير الابراهيمي منذ محرّم ١٣٥٨ه الموافق لفبراير ١٩٣٩م. ١١

وعلى أصحاب القرار في السلطة أن يصدروا قوانين تقضي بتعميم استعمال اللغة العربية في مختلف الإدارات ووسائل الإعلام المكتوبة والمرئية.

ويجب إصدار الكثير من الجرائد والمجلات الناطقة باللغة العربية والتي يمكن إرفاقها بصفحة تلخّص فيها أهمّ الموضوعات باللغة الفرنسية من أجل الذين لا يتقنون اللغة العربية حتى يفهموا ما يكتب ويحاولون قراءته باللغة العربية فيكون ذلك دافعا لهم لتعلّم اللغة العربية.

كما يجب إعادة النظر في سياستنا اللغوية ويشمل ذلك وضع استراتيجيات وخطط لتطوير اللغة العربية، وتنمية اعتزاز طلابنا في جميع المراحل بلغتهم العربية، لغتهم القومية، وتطوير مقررات اللغة العربية خاصة قواعد اللغة العربية، وتزويد الطلاب بالمهارات اللغوية اللازمة لتنمية قدرتهم على التعريب والترجمة والتأليف وتطوير اللغة العربية، وضرورة أن يشعر كل طالب وأستاذ ومتخصص مسئول وغير مسئول أن التعريب وتطوير اللغة العربية مسؤوليته.

وإعادة النظر أيضا في سياستنا التربوية بحيث يكون للمؤسسات التربوية والجامعات دور في رفع شأن اللغة العربية. مناهجنا قديمة غير متطورة، وطرق تدريسنا متخلفة. لذا يجب تعريب الدراسة في جميع التخصصات، و على

الطلاب حفظ المصطلحات باللغة العربية في المقررات التي تدرس باللغة الفرنسية. فعلى الرغم من أن الكثير من واللواحق والجذور باللغة الفرنسية يونانية الأصل، إلا أن سياسة الجامعات في اليونان تقتضي أن يدرس الطلاب الطب والهندسة باللغة اليونانية ويحفظون المصطلحات باللغة الإنجليزية أو الألمانية أو الفرنسية. وعلينا تغيير سياسة الدراسات العليا في جامعاتنا بحيث يسمح للطلاب بكتابة الرسائل باللغة العربية إذا رغبوا في ذلك

و إنعاش حركة الترجمة والتعريب والتأليف وهذا يقتضي إنشاء مراكز عربية للترجمة في جميع الدول العربية وربط هذه المراكز ببعضها البعض على شبكة الانترنت.

وعلى الرغم من وجود الكثير من القواميس المتخصصة في جميع المجالات، إلا أن معظمها ألف في الستينيات أو السبعينيات أو الثمانينيات ولم تصدر منه إلا طبعة واحدة، لا يضاف إليها باستمرار. لذا ينبغي أن يكون تأليف القواميس جماعيا تضطلع به منظمة أو دور نشر متخصصة. وحيث إننا في عصر المعلوماتية، من الضروري وضع هذه القواميس على الانترنت ،و إنشاء مواقع للمترجمين والكتب المترجمة والقواميس العربية المتخصصة ومؤتمرات التعريب على الانترنت.

و لكي ننجح في هذه المهمّة يمكننا الاستفادة من تجارب الدول الأخرى مثل اليابان وكوريا والصين وروسيا واليونان في الترجمة ونقل العلوم.

خاتمة :

إنّ التعريب وتعميم استعمال اللغة العربية في الجزائر مهمّة صعبة ولكنّها ليست مستحيلة فمثلما نجحت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في نشر اللغة العربية والتعليم العربي بفضل مدارسها ونواديها وصحفها العربية وسعت بكلّ ما أوتيت من قوّة إلى الدفاع عن هوية الجزائريين ولغتهم وشخصيتهم وتصدّت بقوّة للمشروع الثقافي الإستدماري والفرنسة والإدماج ، فنحن أيضا قادرون اليوم على خوض المعركة نفسها والنجاح فيها إذا كانت النوايا صادقة والعزائم قويّة لأنّ الله لا يغيّر ما بقوم حتّى يغيّروا ما بأنفسهم ، فيجب أن نبرمج أدمغة الأجيال الحاضرة والصاعدة بما قاله الإمام ابن باديس في نشيده المشهور الذي كنّا نردّده منذ نعومة أظافرنا:

شعب الجزائر مسلم
وإلى العروبة ينتسب
من قال حاد عن أصله
أو قال مات فقد كذب
أو رام إدماجا له
رام المحال من الطلب

الهوامش:

١ – ينظر محمد يحياتن ، دراسات حول اللغة العربية في الجزائر خلال فترة الإستعمار، منشورات المجلس الأعلى للغة العربية ، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية ، ٢٠٠٥، ص١٧.

٢ – ينظر خولة طاب الإبراهيمي ، الجزائريون والمسألة اللغوية ، ترجمة محمد يحياتن ، دار الحكمة ، الجزائر، د. ظ، ٢٠٠٧، ص، ١٠.

٣ – خالد مرزوق ، المختار بن عامر، مسيرة الحركة الإصلاحية بتلمسان، آثار ومواقف، مركز التصوير ، تلمسان، ٢٠٠٣، ص ١٨٠.

٤ – مازن صلاح حامد مطبقاني، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ودورها في الحركة الوطنية الجزائرية، عالم الأفكار للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، طبعة ٢٠١١، ص ١٠٢

٥ – محمد البشير الإبراهيمي، عيون البصائر، شركة دار الأمّة للنشر والتوزيع، الجزائر، ٢٠٠٧، ص٣٦.

٦ – مازن صلاح حامد مطبقاني، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ودورها في الحركة الوطنية الجزائرية، عالم الأفكار للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، طبعة ٢٠١١، ص ١٠٣.

٧ – المرجع نفسه ص ١٠٤.

٨ – ينظر عثمان سعدي، التعريب في الجزائر كفاح شعب ضدّ الهيمنة الفرنكفونية، دار الأمّة ، الجزائر، د.ط، د.ت، ص ١٩٦.

٩ – محمد البشير الإبراهيمي، عيون البصائر، شركة دار الأمّة للنشر والتوزيع، الجزائر ،٢٠٠٧، ص٢٢١.

١٠ – المرجع نفسه ص ٢٤.

١١ الشيخ عبد الرحمان شيبان، حقائق ،أباطيل، منشورات ثالة، الأبيار، الجزائر، ٢٠٠٩، ص ١٩٠.